المنادي في مصر يواصل مهامه الإخبارية مع ثورة الإتصال

جيل الفيسبوك يألف صيغة النداء التقليدي كوسيلة إعلام حية

العمليــة الاتصاليــة بين الناس مــرت بمراحل مختلفة لتصــل اليوم إلى التلفزيــون ومنصات التواصل الاجتماعي وغيرهما من الأدوات الاتصالية التي تعتمد على الإنترنت، بعض هذه الوسائل التقليدية مازال موجودا في مصر وخاصة في الأحياء الشــعبية والقرى، إنه المنادي الذي يطوف على دابة أو وســيلة نقل ويخبر النــاس بصوت جهوري عن أمر يهمهم في تلك المنطقة.

رحاب عليوة
كاتبة مصرية

القاهرة- تدفع الثــورة المعلوماتية بعــض الناس ويســارعون إلــى إطلاق أحــكام على وفاة عادات قديمة أو اندثار مهن بعينها، لمجرد أنها لم تعد موجودة بصيغتهــا المتعارف عليهــا، من بينها المناداة، كطقس شعبي يقوم بدور وكالة أنبــاء وإعلان فــي بعــض المجتمعات القروية والشعبية وحتى الحضرية.

لكــن اســتمرار المنــادي وســط التطــورات التكنولوجية عكس تشــبث التراث الشعبي بالصراع من أجل البقاء، ويستمر ليصبح بصورة أو بأخرى جزءا من مكنــون الفرد ثــم المجتمع، وبعدها يصبح عصيا على الاندثار بحيل التأقلم.

في إحدى ضواحي حي السادس من أكتوبر، جنوب غرب القاهرة، نفذ صوت مناد إلى منزل محمد حسن صاحب الـ62 عاما، يتجول من خلال "توك توك" تعلوه ســماعة أو أكثر لمكبــرات صوت، يخبر الناس عن ضياع طفلــة، ويدعو الأهالي للمشاركة في العثور عليها، ثم تلا عنوان ورقم هاتف الأسرة للمساعدة.

يألف حســن الذي شــب في ضاحية شــبرا الشــعبية فــي ســتينات القــرن الماضي، صوت المنادي كوســيلة إعلام رئيســية، حين يتجول على ظهر دابة أو مترجلا وهو يمســك طبلة للتنبيه، يخبر عــن حوادث الوفــاة أو ميلاد الأطفال أو عقد قران شاب وفتاة.

الفيسبوك أسرع

صحيــح أن مهنة المنــادي عادة لم تندثر، لكن معاناتهــا تزداد مع كل تقدم تكنولوجــي وحدوث تطورات جديدة في ثورة المعلومات. ويقول حســن "قديما كان هنــاك أشــخاص بأعينهم يمتهنون النــداء، وتلجــأ إليهــم جهات رســمية وشــعبية حين تريد إذاعــة خبر ما، أما اليوم فهناك صفحــات عديدة للتواصل الاجتماعي تقوم بالمهمة".

ولا يألف أبناء حســن عــادة (مهنة) المنــاداة تلــك برغم شــغف والدهم بها كتراث قديــم يجب تقديســه ودعمه من أجل البقاء، ويفضــل أولاده التفاعل مع الثــورة المعلوماتية بكل تحديثاتها، ما يعني أنهــا تعكس منســوب الصراع الثقافــي والفكري داخــل الأســرة الواحــدة. قالــت ســهير، وهــي ابنة حسن، لـ"العرب"، "عندما سمعت نبأ اختفاء الطفلة من المنادي في الشارع ســارعت إلى كتابة الواقعة على موقع التواصــل الاجتماعي فيســبوك، ضمــن مجموعة تضم الكثير من ســكان ضاحيــة أكتوبر، ودونــت ملامح الطفلة وعنوانها"، وفتحت الفتاة نافذة حوارية حية ومســتمرة، يســتطيع مــن خلالها أهالي المنطقة متابعــة حادث الاختفاء والمشاركة في العثور عليها.

يعني الأمر أن المناداة كعادة تصارع من أجل البقاء، يصعب الاســتغناء عنها بشــكل كامــل كأداة للمعرفــة، وإن بات التطــور التكنولوجي يقــوم بهذا الدور بشــكل أكبــر، لأن العلاقة بيــن الاثنين (المنــاداة والتواصــل التكنولوجــي) يفتــرض أن تقوم علــى التكامل، وليس محاولة كلاهما إزاحة الآخر.

دليــل ذلــك، أن هنــاك حاجــة ملحة إلــى المنــادي فــي القــرى والنجــوع الريفيــة والمناطق الشــعبية التي تزيد فيهــا معــدلات الأمية بيــن الســكان، حتــى أن الكثيــر مــن القاطنيــن فيهــا يفتقدون أبجديات اســتخدام الوســائل التكنولوجية والتواصل مع الآخرين عبر المنصات الاجتماعية.

الحضور القروي

تختلــف وســيلة التواصــل بيــن المنــادي والســكان، حســب طبيعــة المنطقة وعاداتهــا وتقاليدها، فمثلا في قرى مصر قــد يتجول المنادي على دابة (حمار) أو يكون مســتقلا "توك توك" أو دراجــة بخارية أو عربــة كارو (صندوق من الخشــب فوق أربع عجــلات يجرها حمــار)، أما في المناطــق الحضرية فقد يســتخدم ســيارة حديثة، والاســتخدام الشــائع يكون بعربة نصــف نقل. ولدى المنادي مهام كبيرة في الريف والمناطق الشعبية، ويظل وسيلة الإعلام الأبرز في إبلاغ الأهالي بالمستجدات الاجتماعية، والقيام بدور البطولة المطلقة بالنســبة للراغبيــن فــي القيام بحملــة دعائية أو سياسية، سواء لأشخاص أو مؤسسات، بينما الدور الأكبر يكون عند الإعلان عن موت أشخاص.

> مازال التوك توك يتجول في ضواحي القاهرة تعلوه سماعة أو أكثر لمكبرات صوت، يخبر الناس عن ضياع طفلة ويدعو الأهالي للمشاركة في العثور عليها

ولا تشترط مهنة المنادي سنا معينا لمن يقوم بالمهمة، وقد يستدعي الأمر أن يقوم مجموعة أطفــال بهذا الدور، حيث رصدت "العرب" في إحدى قرى محافظة الدقهلية في شــمال القاهرة تجول طفل وقــت الظهيرة، مســتقلا "عربــة كارو" ويعلــن عن بيــع بعض أنــواع الفاكهة، مثل البطيخ، ويتبادل مع الناس الحديث فــي الميكروفــون كلمــا تعــرض لبيــع بضاعته.

ويســتدعي الظرف الطــارئ أحيانا أن يعمــل الطفــل منــاديــا. فالصغار قد يتولون مهمة إعلام الناس باسم متوفى، مــن أقاربه، وقــد يتفرغــون للمهمة لأن كبار العائلة انشــغلوا بإجراءات العزاء والدفــن، وفــي هــذه الحــالات، لا قيمة لمنصات التواصل الاجتماعي في القيام بــدور المنــادي، لأن الذين تــم إعلامهم بحالــة الوفــاة مــن ممتهنــي الزراعــة والحــرف الصغيرة بالقريــة، ولا علاقة لهم بالثورة التكنولوجية.

وتتســع مهمــة المنادي فــي القرى لتشــمل إعلام الناس بالأخبار التي يريد العمدة إبلاغها إلى الأهالي، مثل وصول الأســمدة الزراعيــة أو توافــر لقاحــات تطعيم الأطفال، وهناك مناد يدعو الناس بشكل جماعي للمشاركة في عقد قران أو حضور زفاف، وإن كان ذلك أقل انتشارا، وتســتلزم الدعوة للأفــراح تقاليد ودية أكثر، بــأن يذهب أصحــاب العُرس إلى الأهالــي فــي منازلهم ودعوتهم بشــكل شخصي.

تقول حميــدة إمام التي تقيم بإحدى قرى محافظة المنوفية (شــمال القاهرة) لـ"العــرب"، "فــي قريتنا يقــوم المنادي بالتجول في الشوارع للإبلاغ عن وصول محصــل الكهربــاء (موظــف حكومــي يجمع تكلفــة فواتير الاســتهلاك)، إذ لا يتنقل بين المنــازل ويمر على كل وحدة سكنية بمفردها كما يحدث في المدن، بل يجلس في منــزل العمدة، ويبعث الأخير بمناد يخبر الأهالــي بوصول المحصل ليتوافــدوا عليــه لدفــع مــا عليهــم من مستحقات مالية".

صوت المدينة

في المدن والأحياء الحضرية وبعض المناطق الجديدة، يتشابه منادي "التوك توك" مع الريف، لكن المهام الاجتماعية تختلف كثيرا، وربما تكون متوافقة إلى حد كبير في تمركــز مهمة المنادي على أخبار الوفاة، وكثيرا ما تحدث المناداة الحضريــة داخــل مكبــرات الصــوت الموجودة في المساجد.

ويســتخدم الشــبان الأعلى تعليما والأكثر اتصالا بالتكنولوجيا، حساباتهم على مواقع التواصل الاجتماعي للإعلان عن وفاة قريب أو صديق، ثم يستقبلون سيلا من التعازي الإلكترونية، ويردون عليها لاحقا، ويصعب حدوث ذلك في القرى والمناطق الشعبية، بأن يكون العزاء إلكترونيــا، بحكم العادات والتقاليــد التي تفــرض على كل الجيران والأقــارب أداء واجب العــزاء بالحضــور، وتتجول مكبــرات الصوت في كل ربوع القرى المجــاورة وأحيانا ما توقظ النيام.

الأكثــر حضــورا فــي المدن والأحيــاء، عندما تتداخل أصوات نــداء الباعــة الجائلين الذين يرددون عبــارات محفوظة مثــل "يا بلــح ولا تين ولا عنــب زيك" (صيغة مفاضلــة بيــن أنــواع الفاكهــة) أو "أحمر يا بطيخ"، ويتحول النداء أحيانا إلى معركة يحــاول فيها كل بائع التغلب على الآخر بالعبــارات الرنانة والصــوت المرتفع، إذا مــا تصادف مــرور أكثر من بائع في الحــدث، فالتقاليد القديمــة كانت تحمل قدرا من الصــدق في المشــاعر أكثر مما هو غالب حاليا، لذلــك كانت المجتمعات مترابطة ومتآلفة".

مكبرات الصوت سهلت مهمات المنادي

الدابة وسيلة نقل لرجل الأخبار القديم

مناد سياسي بأجر

يزدهــر موســم النــداء، ويصبــح مهمة مدفوعــة الأجر، قبيــل الانتخابات البرلمانية أو المحلية، إذ تتم الاســتعانة بشــبان يخاطبــون الناس عبــر مكبرات الصــوت، بأجــر يومي يتــراوح بين 300 إلــى 500 جنيــه (الدولار بـــ17.56 جنيه) وتتمثــل مهمتهم فــي الدعاية للمرشــح أو دفــع الجمهور إلى تبنــي وجهة نظر بعينهــا. ويلجــأ الكثير من المرشــحين فــي الانتخابات إلى المنــادي كبديل عن المؤتمــرات الجماهيرية التــي يمكن أن تتكلف مبالغ مالية كبيرة، فضلا عن غياب الكثير من الأهالي عــن المشــاركة فيهــا، خاصة النساء والشباب، وبالتالي يكــون المنادي البديــل الأمثــل والورقة الرابحة للمنافســين في أي مقعــد برلماني أو محلي. المهنة الموســمية للمنادي أثناء الانتخابات لها بعض الشروط، إذ تفضل الشــخصيات المتمرســة فــي الحديث عبــر الميكروفونات وتركيــب العبارات الرنانــة، ولا مانــع مــن أن تتمتع بروح الفكاهة، إذ في الغالب يكون المستهدف مــن الصيغة الدعائية بالنــداء، ناخبون أميــون ممن لا يتفاعلون مع منشــورات ورقية أو أخرى رقمية، ولا يســتوعبون أحاديث المؤتمــرات وغالبا يهجرونها، فهــم جماهير ســماعية يتــم اجتذابها بعبــارات ووعود رنانة، حتــى إذا رآها البعض غير لائقة بعملية سياسية حرة.

صحيــح أن انحســار دور المنــادي في الواقــع انعكس على انكماش مكانته في الســينما، لكن بعض الأفلام تناولت دوره ترسيخا لعادة وتقليد وطقس يأبى الاندثار، ســواء كان الغــرض منه دعاية موسمية، أو وســيلة ترويجية، لذلك تم توظيــف المنادي في أعمال ســينمائية عكست أهميته التاريخية.

حتى أن فيلمــي "الزوجــة الثانية" و"عــودة الابن الضــال" اللذيــن أنتجا عــام 1967، أظهــرا المنــادي فــي هيئة "الأراجــوز" أو صاحب "صندوق الدنيا" الــذي يحمل نــوادر القريــة وقصصها لأخــذ العبــرة، كما لــم تخل المشــاهد الســينمائية الحالية مــن المنادي، لكنــه دُس وســط الأحداث بشــكل اســتثنائي، يعكــس انحدار هذه العــادة وتغير أهدافها، ربما لأنها تنشد التأقلم مع واقع مجتمعي لا تســتهو به العــادات والتقاليد.